

اجتهادات مقاومة وشهداء

لم يتفاعل فنانون تشكيليون عرب بما يكفى مع الصمود الأسطوري للشعب الفلسطيني ومقاومته. يؤمل أن يكون بعضهم شرعوا فى رسم لوحاتٍ كبيرةٍ تُعبر عنه. ولو أن الفنان الكبير الذين رحل قبل عدة أشهر محمد على الخطيب أمهله القدر لكان قد فعل.

ذُكرنى الصديق إياد الخطيب، فى تعليقه على اجتهاد غزة وجرنیکا، بلوحات والده التى شاهدناها معه فى مرسومه بصيدا. وأرسل لى صور عدد منها للتذكير. ومن بينها مثلاً لوحة مقاومة (1961) التى نرى فيها خمسة مقاومين متخندقين فى وضع استعداد ولا يظهر بالتالى نصفهم الأسفل، فيبدون متجذرين فى الأرض، فيما النصف الأعلى يمتزج بأعشابها، ونور الشمس ساطع يعطيهم الطاقة والقوة ويرمز أيضاً إلى لهيب الحق. وفى لوحة النكبة الثانية (1967) جمع من الفلسطينيين يُرغمون على المغادرة. بطل اللوحة طفل يحاول أن يجر أمه للعودة فيما يده اليمنى تشير فى الاتجاه الذى جاءوا منه مُرغمين، وكأنها تُحدد بوصلة النضال

الفلسطينى. وتوحى اللوحة بخطٍ بشرى مُمتد يمتزج بلون الأرض للدلالة على أن اللاجئين أو النازح تبقى جذوره فيها ولا يمكن اقتلاعها. أما لوحة دماء الشهداء (1977) فهي تُعَبِّرُ عن تضحيات أجيال من الفلسطينيين، وغيرهم من العرب، من أجل التحرر. وأجد فيها اليوم تعبيرًا عن الدماء الغزيرة التى تُسْفِكُ فى غزة الآن. نرى فيها شجرةً تبدو كما لو أنها رُويت بدماء الشهداء، ولكن جذورها عميقة فى الأرض ومتوحدة معها، فيما تخضر بعض غصونها للدلالة على الأمل فى جدوى النضال من أجل الحق، ويأخذ أحدها شكل سيف للدفاع عن هذا الحق. وتبدو لوحة أم الشهيد (2007) كما لو أنها تكمل الفكرة، إذ نرى فيها الأم ملتصقةً بابنها الشهيد الذى تخرج من ضريحه زهور شقائق النعمان الوردية التى ترمز إلى استمرار الحياة والنضال. ونلاحظ كيف يلتصق جسد الأم بالضريح دلالةً على أنه يبقى حيًا وموجودًا معها ومعنا، وهو الذى صار فى الجنة حيث تحلّق ملائكة فى أعلى اللوحة. وليس هذا إلا غيضًا من فيض إبداعات الفنان الخطيب المتفاعلة مع الحق والمقاومة.

